الفصل الثالث

مرويات الأدباء والنقاد

خص الجاحظ في كتابيه البيان والتبيين والحيوان بعض النصوص الشعرية بالتفرد والتميز، ولذلك جعلها صالحة للرواية، حسنة للمذاكرة والتداول والإنشاد، وهي نصوص تأتلف فيها الصورة الفنية بالمضمون الحسن، من ذلك قول عَبَدَة بن الطبيب[1]:

واعْصُوا الذي يُلْقي القَنافِذَ بينكم ... مُتَنَصِّحاً ذاك السَّمامُ الأَنْقَعُ[2]

يُزْجي عَقارِبَهُ لِيَبْعَثَ بَيْنَكُمْ ... حَرْباً كما بَعَثَ العُروقَ الأَخْدَعُ[3]

---

(١) عبدة بن الطبيب، والطبيب اسمه يزيد بن عمرو بن وعلة ينتهي نسبه بزيد مناة بن تميم. وعبدة شاعر مجيد ليس بالمكثر، وهو مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، وكان في جيش النعمان بن المقرن في حرب الفرس في المدائن، وكان فارساً شجاعاً في هذه الفتوح، ترفع عن الهجاء في شعره شرفاً ومروءة، إذ كان يراه ضعة. (الأغاني ٢١/٢٦).

(٢) السَّمام: جمع سمّ، والمنقع: الناقع، وهو البالغ الثابت المعتق. ويلقي القنافذ: معناها: «يشبه النمام المداخل والدسيس بالقنفذ لخروجه بالليل دون النهار، لاحتياله للأفاعي» (الحيوان ٤/١٦٧).

(٣) الأخدع: عرق في صفحتي العنق، وهو شعبة الوريد، والمقصود أن النمّام يسوق أحاديثه ويمدُّ أعوانه بها بين الناس كما يمدّ الأخدع العروق بالدَّم.

حُرَّانَ لا يَشْفي غَليلَ فؤادِهِ عَسَلٌ بماءٍ في الإناءِ مُشَعْشَعُ[1]
لا تَأْمَنوا قَوْماً يَشِبُّ صَبِيُّهم بَيْنَ القوابلِ بالعَداوةِ يُنْشَعُ[2]

ثم قال عبدة بن الطبيب في صلة الأبيات التي ذكر فيها القنفذ والنميمة:

إن الذين تَرَوْنَهم خِلَّانكُم يَشْفي صُداعَ رؤوسِهم أن تُصْرَعوا
قَوْمٌ إذا دَمَس الظَّلام عَلَيْهِمُ جذعوا قَنافِذَ بالنميمةِ تُمْزَعُ[3]

قال الجاحظ مميزاً لهذه الأبيات: «وهذا الشعر من غرر الأشعار وهو مما يحفظ»[4].

ومن ذلك أيضاً أبيات في مدح أسيلم بن الأحنف الأسدي، وكان ذا بيان وأدب وعقل وجاه، وهي التي يقول فيها الشاعر[5]:

ألا أيُّها الرَّكبُ المخبونَ هل لكم بسَيِّد أهل الشَّام تحبوا وترجعوا
أُسَيْلمُ ذاكُم لا خنا بمكانه لعين تُرَجَّى أو لأُذنٍ تَسَمَّعُ
من النَّفَر البيضِ الذين إذا انتموا وهاب الرِّجالُ حَلْقَةَ الباب قعقعوا[6]
جلا الأَذْفَرُ الأحوى من المسك فَرْقَهُ وطيبُ الدِّهانِ رَأْسَهُ فهو أَنْزَعُ[7]

---

(١) الحران: الشديد التلهب، الذي يغلي جوفه من شدة الغيظ وحرارته، والغُلَّة: شدة العطش، والمشعشع: الممزوج.

(٢) القوابل: جمع قابلة، وهي التي تستقبل المولود، والنَّشوع: الدواء يوضع في فم الصبي كرهاً.

(٣) جذعوا: تفرقوا في كل وجه، تمزع: تمر مرّاً سريعاً.

(٤) الجاحظ: الحيوان ٤/ ١٦٧-١٦٨. والأبيات من قصيدة من أجود شعر عبدة بن الطبيب الإسلامي، اختارها المفضل الضبي (مفضلية رقم ٢٦) وغيره. (انظر حاشية ديوانه ص٤٢).

(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ٣٩٦. وهذه الأبيات استحسنها أُسيلم نفسه وعبد الملك بن مروان كذلك، إذ قال لأُسيلم: «ما قال أخو الأوس أحسن مما قيل لك» (الكامل ١/ ١٨١).

(٦) جعلهم نفراً لقلتهم، والكرام قليل.

(٧) الأذفر: الشديد سطوع الرائحة، والأنزع: الذي انحسر الشعر عن جانبي جبهته.

إذا النَّفَـرُ السـود اليمـانـون حاولـوا له حَوْكَ بُرْدَيْهِ أَرَقُّـوا وأوسـعـوا[1]

قال الجاحظ: «وهذا الشعر من أشعار الحفظ والمذاكرة» [2].

وإذا كان انعطاف الجاحظ إلى النموذجين السابقين استطراداً في مناسبة فكرة خاصة، فإن له وقفة ذات أناة وقصد لهذا الإحسان في الأبيات المنفردة المعاني، إذ يقول: «ونذكر هنا أبيات شعر تصلح للرواية والمذاكرة»[3] وهي كما يلي:

قال سويد المراثد الحارثي أو غيره[4]:

بني عَمِّنـا لا تَذْكـروا الشِّعْـرَ بَعْـدمَـا دَفَـنْـتُـمْ بصـحـراءِ الـغُمَيْمِ القَـوافيا
فَلَسْـنَـا كَمَـن كُنْـتُـم تُصِيْبـونَ سَلَّةً فَنَـقْـبَـلَ ضَيْمَـاً أو نُحَـكِّـمَ قاضِيا[5]
ولـكِـنَّ حُكْـمَ الـسَّـيْفِ فيكـم مُسَـلَّطٌ فَنَـرْضَى إذا ما أَصْبَـحَ السَّيْفُ راضيا
وقَـدْ ساءَني ما جَرَّتِ الحَـرْبُ بَيْنَنـا بَنـي عَمِّنـا لو كان أَمْـرَاً مُدانـيا
فإن قُلْتُـمْ إنَّـا ظَلَمْـنَـا فلم نَكُـنْ ظَلَمْـنَـا ولَكِنَّـا أَسَـأْنـا التقـاضِيا[6]

وقال ضابيء بن الحارث[7]:

---

(١) النفر السود اليمانون، وصفهم بذلك لأن اليمانية يوصفون بالسواد.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين ١/٣٩٦.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ١/ ١٨٦-١٨٧.

(٤) وتروى الأبيات للشميذر الحارثي، والشميذر دابة، وليست عربية صحيحة. وسويد بن صميع المرثدي من بني الحارث بن كعب، شاعر فارس، ويقال إنه إسلامي، ومناسبة هذه الأبيات أن أخاه قتل غيلة، فقتل سويد قاتل أخيه نهاراً في بعض الأسواق من الحضر.

(٥) تصيبون سلة: تنالونهم سرقة.

(٦) انظر شرح الأبيات مفصلاً في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ١٢٤-١٢٦.

(٧) ضابيء بن الحارث من البراجم كان رجلاً بذياً كثير الشر، وكان بالمدينة وكان صاحب صيد، مات في سجن عثمان بن عفان بشعر فاحش قاله. (ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/ ١٧٢-١٧٤).

وربَّ أمورٍ لا تُضيرُكَ ضَيْرَةً ولِلقَلْبِ من مَخْشَاتِهنَّ وجيبُ

وقال حارثة بن بدر[1]:

وقل للفؤادِ إن نَزَا بك نزوةً من الرَّوعِ أفرخ أكثر الرَّوعِ باطِلُه

وقال لبيد:

واكذبِ النَّفْسَ إذا حَدَّثْتها إن صدق النفس يُزْري بالأمل

وقال حبيب بن أوس:

وطولُ مُقام المرءِ في الحيِّ مُخْلِقٌ لديباجتيهِ فاغترب تتجدَّدِ
فإني رأيتُ الشَّمْسَ زيدت مَحَبَّةً إلى النَّاسِ أَنْ ليست عليهم بسَرْمَدِ

وقال غيره:

هو الشَّمْسُ إلا أنَّ لِلشَّمْسِ غَيْبَةً وهذا الفَتَى الجَرْمِيِّ ليس يَغِيْبُ
يَروحُ ويَغْدو ما يُفَتِّر ساعةً وإن قِيْلَ ناءٍ فهو مِنْكَ قريبُ

وقال آخر:

خلافاً لقولي من فيالة رأيه كما قيل قَبْلَ اليومِ: خالف فَتُذْكرا

وقال حارثة بن بدر:

إذا متُّ سرَّ بني تميم على الحدثانِ لو يلقون مثلي
عدوٌّ عَدوُّهم أبداً عَدوي كذلك شِكلهم أبداً وشِكلي

(١) حارثة بن بدر بن حصين بن قطن. . . التميمي القداني، شاعر مخضرم، أدرك الإسلام فأسلم، ويقال إنه مات غرقاً في ولاية عبد الله بن الحارث على العراق سنة ٦٤هـ، وكان رجل تميم في وقته (الشعر والشعراء ٢/٧٣٨، الإصابة ٢/١٦١ أمالي المرتضي ١/ ٢٨٢-٢٨٣).

وهذه الأبيات بناؤها قائم في أغلبها على مفارقة الأحوال، فالوعظ في ذلك بالغ غرضه بتصوير الموقف المتباين بالتقابل أو التضاد، وهما ظاهرتان فنيتان ذواتا نفع وإفادة في ترسيخ المعنى أو توجيه الحكم.

ويربط الجاحظ هذه الأنماط بغاية سلوكية تربوية إذ يعلل لقصيدتين لبشر بن المعتمر اشتملتا على حكمة عجيبة، وموعظة بليغة بالقول: «إن حفظ الشعر أهون على النفس، وإذا حفظ كان أعلق وأثبت، وكان شاهداً، وإن احتيج إلى ضرب المثل كان مثلاً»[1].

وتفصح هذه الأنماط المخصوصة بالرواية والحفظ عن لونين من الشعر:

أحدهما: قيده بالمذاكرة إذ فيه مجال للقول، ومتسع للنقاش والنقد لعيب فني، أو خطأ معنوي، وحدد الجاحظ لذلك علة من تنشيط النفس، وتجديد الهمة، فهو يقول في التمهيد لهذا اللون: «وسنذكر قبل ذكرنا لهذا الباب أبواباً من الشعر طريفة، تصلح للمذاكرة، وتبعث على النشاط معه، وتستخف معه قراءة ما طال من الكتب الطوال»[2].

وثانيهما: أطلقه من غاية محدودة، وجعل مداره النادرة وطرافة المعنى، ولذلك أدرجه تحت باب «أخلاط من شعر ونوادر وأحاديث» ومن نماذجه[3] قول هبيرة بن أبي وهب المخزومي:

وإن مقال المرء في غير كنهه ... لكالنبل تهوي ليس فيها نصالها

وقول الراجز:

والقول لا تملكه إذا نما ... كالسهم لا يرجعه رامٍ رمى

وقول الأنصاري:

---

(١) الجاحظ: الحيوان ٦/ ٢٨٤.

(٢) الجاحظ: الحيوان ٥/ ١٥٤-١٥٥.

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين ٣/ ٢٠٣ وانظر الحيوان ٦/ ٤٨٢.

وبعض القول ليس له حصاة كمخض الماء ليس له إتاء
وبعض خلائق الأقوام داء كداء الشيخ ليس له دواء

على أن الملاحظة التي لا تحتاج إلى فضل تدبر هي أن هذه المرويات مقطوعات وأبيات، فلعل الجاحظ قصد منها ما قصده الفرزدق في مقولته وقد سئل: ما صيرك إلى القصار بعد الطوال فقال: «لأني رأيتها في الصدور أولج وفي المحافل أبلج»[1] وللتجويد في القصار والطوال منزلة رفيعة عند الجاحظ لأنه نتاج الموهبة المرنة الصائبة.

وكان ابن طباطبا (محمد بن أحمد ت ٣٢٢هـ) واضح النهج، قويم الاتجاه، دالاً على الإحسان في مرويات شعرية عدّة، إذ حدّد أسسه في الانتخاب بما يتفق والاتجاه الجمالي في المفهوم الإسلامي، الذي مداره على إتقان الصنعة الفنية إتقاناً لا يفقد المعاني القوامة والاستقامة على الخلق والحق والفضيلة والخير، فكانت مروياته لذلك من «الأشعار المحكمة المتقنة المستوفاة المعاني، الحسنة الرصف، السلسلة الألفاظ، التي قد خرجت خروج النثر سهولة وانتظاماً، فلا استكراه في قوافيها، ولا تكلف في معانيها، ولا داعي لأصحابها فيها»[2] وبمفهوم آخر فإن ابن طباطبا قصد إلى أن يحقق الشعر غاية نفعية تربوية جمالية، فطلب ذلك في الشعر بمجموع من عناصر بنائه الفني، كالسهولة والبساطة في التعبير، وتكامل المعاني واستيفاء الأجزاء التي تحقق وحدتها، مع مباينة التكلف؛ ولذلك فإن الأشعار التي تجري وفق هذه المعايير قديمة كانت أو محدثة «تجب روايتها والتكثر لحفظها»[3].

وتنتمي النصوص التي انتخبها ابن طباطبا إلى الأدبين الجاهلي والإسلامي، وكان تعدادها أربعة وعشرين نصاً، لواحدٍ وعشرين شاعراً موزعة على النحو التالي:

---

(١) أبو حيان التوحيدي: البصائر والذخائر ٢/٣٠١ تحقيق د. إبراهيم الكيلاني دمشق ١٩٦٤م.

(٢) ابن طباطبا: عيار الشعر ٤٨-٤٩.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٧.

شاعر جاهلي	عدد النصوص	الأغراض	عدد الأبيات	شاعر مخضرم	عدد النصوص	الأغراض	عدد الأبيات	شاعر إسلامي	عدد النصوص	الأغراض	عدد الأبيات
زهير بن أبي سلمى	٢	وعظ مدح	١٨	أبو ذؤيب الهذلي[1]	١	رثاء	٤	القطامي	٢	مدح	٢٠
عنترة	١	فخر	١١	أبو قيس بن الأسلت	١	فخر	١٧	ذو الرُّمة	١	مدح	٥
الأسود بن يعفر	١	وعظ	٨	الخنساء	١	رثاء	٧	الفرزدق	٣	رثاء	٣٤
سلامة بن جندل	١	فخر	٤	نهشل بن حران المازني	١	فخر	١١	الراعي النميري	١	شكوى	٧
المغيرة بن جبناء	١	فخر	٩	النمر بن تولب	١	وعظ	٥	أبو النجم العجلي	١	فخر	١٨
عبد الشارق بن عبد العزى	١	فخر	١٩					عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي	١	فخر	١٥
المثقب العبدي	١	وعظ	٨					مروان بن أبي حفصة[2]	١	مدح	٦
عدي بن زيد	١	وعظ	١٥								
٨	٩	٣	٨٣	٥	٤	٣	٤٤	٧	١٠	٤	١٠٥

ويمنح هذا الجدول للدارس له تصورات عدّة، تدني من فهم رؤية ابن طباطبا النقدية في مجال الرواية، من ذلك أن الانتخاب بين شعراء الجاهلية والإسلام مبني

---

(١) أبو ذؤيب شاعر مخضرم غير أن النص الذي أورده له ابن طباطبا في رثاء أبنائه الخمسة إسلامي على أرجح الآراء فيه.

(٢) شاعر مجود ولد سنة ١٠٥هـ توفي في عصر الرشيد سنة ١٨٢هـ وهو من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية.

على توازن أو قريب منه، وتتبدى قيمة هذا المنحى عند ابن طباطبا إذا ربطنا هذه العينة بما انتخبه الأصمعي والمفضل الضبي من الشعر الإسلامي إذ قصرا الأمر في ذلك على المخضرمين دون غيرهم. ولم يتجاوز عدد الشعراء المخضرمين في الأصمعيات عشرة شعراء، بينما يتجاوز ذلك في المفضليات قليلاً، غير أن احتفاء الأصمعي بأشعار المخضرمين أكثر من نظيره المفضل[1]. ولعل في عدد أبيات الشعر الإسلامي الذي مجموعه مائة وتسعة أبيات مجازاً للقول أن الشعر الإسلامي صنو الشعر الجاهلي في الإحسان والإتقان بل إن فيه إمتاعاً زائداً عليه للباحث عنه.

وإذا استثنى الباحث نصاً واحداً قائله من مخضرمي الدولتين والمقول فيه من العصر العباسي، كان اقتصار ابن طباطبا على شعر العصرين الجاهلي والإسلامي وفاءً لقناعته في تميز شعر هاتين المرحلتين بالصدق دون شعر المحدثين، وهو بذلك يعطي الرواية فهماً جديداً وأساساً أصيلاً، يقول ابن طباطبا: «ومع هذا فإن من كان قبلنا في الجاهلية الجهلاء وفي صدر الإسلام كانوا يؤسسون أشعارهم في المعاني التي ركبوها على القصد للصدق فيها مديحاً وهجاءً وافتخاراً ووصفاً وترغيباً وترهيباً، إلا ما قد احتمل الكذب فيه في حكم الشعر من الإغراق في الوصف والإفراط في التشبيه، وكان مجرى ما يوردونه مجرى القصص الحق والمخاطبات بالصدق»[2].

ولئن كان في تقرير ابن طباطبا النظري هذا مدعاة للدهشة عند بعض الباحثين[3]؛ لتعميمه في ذلك ومجانبته الدقة، فقد يكون في هذه العينة من المنتخبات التي تعزز النظرية بالتطبيق، ما يقيد مقصده، ويحقق صواب رأيه.

ويلم ابن طباطبا في هذه المنتخبات بأغراض شعرية خمسة؛ هي الفخر والمدح والرثاء والوعظ والشكوى، وهذه الأغراض ذات صلات بأغراض أخرى مثل الوصف

---

(١) عدد قصائد المفضليات ١٣٠ والأصمعيات ٩٢.

(٢) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٩.

(٣) د. إحسان عباس: تاريخ النقد الأدبي ص١٤٣.

خاصة، الذي جاء الابتداء به يحمل غاية نفسيّة تمهيدية للفخر أو المدح، وهو وصف جمالي فيه إتقان وإثارة في تصوير السلاح أو رسم صورة المراكب، من ذلك قول سلامة بن جندل[1]:

سوى الثِّقافُ قناها فهي مُحكمةٌ ... قليلة الزَّيْغ من سَنٍّ وتركيب[2]
كأنها بأكفِّ القوم إذا لَحقوا ... مواتِحُ البئرِ أو أشطان مطلوب[3]
كنا إذا ما أتانا صارخٌ فزعٌ ... كان الصراخ له قرع الظَّنابيبِ[4]
وشدَّ كورٍ على وجناءَ ناجيةٍ ... وشَدَّ لبدٍ على جرداءَ سرحوبِ[5]

وقول القطامي[6]:

يمشين رَهْواً فلا الأعجاز خاذلةٌ ... ولا الصدور على الأعجاز تَتَّكِلُ
فَهُنَّ معترضاتٌ والحَصَى رمضٌ ... والريح ساكنة والظِلُّ مُعتدلُ
يتبعن سامية العينين تَحْسَبُها ... مجنونةً أو ترى ما لا ترى الإبلُ
إن ترجعي من أبي عثمان منجحةً ... فقد يهون مع المستنجح العملُ
أهل المدينة لا يحزنك شأنَهُمُ ... إذا تَخَطَّأَ عبد الواحِدِ الأَجَلُ

وإنما جاء تخصيص هذه الأغراض دون غيرها عند ابن طباطبا والحض على روايتها والتكثر من حفظها طلباً لأمرين:

---

(١) عيار الشعر ص٥٧.

(٢) الثقاف: خشبة في وسطها ثقب يقوم بها الرماح إذا اعوجت، الزيغ: الاعوجاج، السن: التحديد والتركيب: وضع النصال عليها.

(٣) المواتح: الحبال التي ينتزع بها الماء، والأشطان: الحبال الطويلة، ومطلوب: بئر جعيدة على طريق المدينة والشام.

(٤) الظنابيب: جمع ظنبوب: وهو حرف عظم الساق.

(٥) الكور: رحل الناقة بأداته، الوجناء: الناقة الغليظة، والناجية: السريعة، الجرداء: الفرس القصيرة الشعر، والسرحوب الفرس الطويلة.

(٦) عيار الشعر: ص ٥٥.

أولهما: أن فيها مدار المثل الأخلاقية والقيم السلوكية عند العرب والمسلمين مدحاً وفخراً.

وثانيهما: تحقق الصدق فيها بمبادئه وأسسه وأنواعه.

ويتداخل هذان المطلبان تداخلاً يضحى الفصل بينهما أمراً عسراً؛ لأن مرجع الغاية فيهما متوحد في التأثير في النفس عن طريق الفهم، وخلود القيم المرتبطة بالمضمون وبالشكل.

١ـ أما مطلبه الأول فقد جاء حصر معالمه ومعانيه في قوله: «وأما ما وجدته في أخلاقها، ومدحت به سواها، وذمت من كان على ضد حاله فيه فخلال مشهورة كثيرة: منها في الخلق والجمال والبسطة، ومنها في الخلق السخاء والشجاعة والحلم والحزم والعزم والوفاء والعفاف والبر والعقل والأمانة والقناعة والغيرة والصدق والصبر والورع والشكر والمداراة والعفو والعدل والإحسان وصلة الرحم وكتم السرّ والموانة وأصالة الرأي والأنفة والدهاء وعلو الهمة والتواضع والبيان والبشر والجلد والتجارب والنقض والإبرام وما يتفرع من هذه الخلال التي ذكرناها من قرى الأضياف... الخ»[1].

ويحقق هذا المطلب من منتخباته قول زهير بن أبي سلمى في المدح[2]:

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا ... وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا[3]
وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعلُ
على مكثريهم حق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم ... مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام منهم حامل قال قاعدٌ ... شكرت فلا غرم عليك ولا خذل
سعى بعدهم قوم لكي يدركوهمُ ... فلم يفعلوا ولم يكتموا ولم يألوا

---

(١) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ١٢.

(٢) المصدر نفسه ٤٩ـ٥٠.

(٣) الاستخبال: أن يستعير الرجل من الرجل إبلاً زمن الشدة فينتفع بها فإن أيسر ردها.

وما يك من خير أتوه فإنما توارثه آباء آبائهم قبلُ
وهل ينبت الخطِّيُّ إلا وَشِيْجَهُ وتغرسُ إلا في منابتها النَّخلُ

وهذه الأبيات غاية في المدح وقد نالت من الثناء جزيلاً، فالأحنف يقول لمعاوية: «فإنكم كما قال زهير وألقى على المداحين فصول القول»[1] ذلك أن زهيراً «لما استتم وصفهم بحسن المقال، وتصديق القول والفعل، ووصفهم بحسن الوجوه، ثم قال: «على مكثريهم حق من يعتريهم... البيت» فلم يخل مكثراً ولا مقلاً منهم من برٍّ وفضل، ثم قال «فإن جئتهم... البيت» فوصفهم بالحلم، ثم قال: «وإن قام منهم قائم... البيت» فوصفهم أيضاً بالتضافر والتعاون، فلما آتاهم هذه الصفات النفسيّة ذكر فضل آبائهم فقال: «وما يك من خير أتوه... البيت» «وهل ينبت الخطي إلا وشيجه... البيت» فهي لذلك كله من المدح الجيد»[2].

ومن المدح وفاء وحسن جزاء لجميل فعل سبق، يقول القطامي[3]:

يقتلننا بحديث ليس يعلمه من يتقين ولا مكتومه بادي
فهن ينبذن من قول يصبن به مواقع الماء من ذي الغلة الصادي
من مبلغٌ زفر القيسيَّ مدحتَه من القطاميَّ قولاً غير أفنادِ
إني وإن كان قومي ليس بينهم وبين قومك إلا ضربة الهادي
مثن عليك فما استيقنت معرفتي وقد تعرَّض مني مقتل بادي
فلن أُثيبك بالنعماء مشتمةً ولن أُبدِّلَ إحساناً بإفسادِ
فإن هجوتك ما تمت مكارمتي وإن مدحت لقد أحسنت إصفادي
وإن قدرت على يوم جزيت به والله يجعل أقواماً بمرصادِ
أبلغ ربيعة أعلاها وأسفلها أنَّا وقيساً تواعدنا لميعادِ
نقريهم لهزميات نقُدُّ بها ما كان خاط عليهم كُلُّ زرَّادِ

(١) الحصري: زهر الآداب ١/٥١.

(٢) أبو هلال العسكري: الصناعتين ١٠٧ـ١٠٨.

(٣) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٥٦.

وللفخر حضور متميز العدد في منتخبات ابن طباطبا، إذ فاق عدد قصائده الأغراض الأخرى، وهو شامل للجاهلية والإسلام وإن كانت نسبته في الجاهلية أعلى فهو انعكاس لصفة الحياة المتغيرة بينهما، وإدراك الإنسان لوظيفته فيهما، وكان ابن طباطبا وفياً لمنهجه حين جعل الفخر سالكاً سبيل الإعلان عن الشجاعة والإقدام والمنعة والنجدة والتضحية من خلال وحدة الجماعة وانتمائها لهذه المُثل والقيم، وتضحية الفرد في تثبيت هذه الحقوق وديمومتها، من ذلك قول نهشل بن حران المازني[1]:

إنـا مُحـيوك يا سَلْمـى فحـيينـا	وإن سقيت كرام النـاس فاسقينـا
إنّـا بنـي نهـشـلٍ لا نَدَّعـي لأبٍ	عنـه ولا هو بالأَنْبَـاءِ يَشْـرِيْنـا
إن تُبْـتَـدرْ غايةٌ يومـاً لِمَـكْـرُمَـةٍ	تَلْقَ الـسَّـوابِقَ مِنَّـا والـمُـصَلِّينـا[2]
ولـيسَ يَهْـلِكُ مِنَّـا سَيِّدٌ أبـداً	إلا افـتَـلَيْنَـا غُلامـاً سَيِّداً فينـا[3]
إنَّـا لَنُـرخِصُ يَوْمَ الـرَّوعِ أنْـفُسنـا	ولـو نُسَـامُ بهـا في الأَمنِ أُغْلينـا[4]
بِيْضٌ مفـارِقُـنـا تَغْـلي مَرَاجِـلُنـا	نَأْسـو بأمـوالـنـا آثـار أَيْدينـا[5]

(١) المصدر نفسه ص ٦٤. والأبيات تنسب إلى بشامة بن جزء النهشلي (شرح الحماسة للمرزوقي ١/١٠٠).

ولعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي قصيدة تجري في الاتجاه ذاته من الفخر (عيار الشعر ص٦٦):

تعـيرنـا أنـا قليلٌ عديدنـا　　فقـلـت لهـا إن الكـرام قليل

(٢) المُصَلِّي من الخيل: الذي يتلو السابق فيكون رأسه عند صلاه أو العظم الناتىء من جانبي العجز، وقصد أن السابقين والتالين في المكرمات من قومه.

(٣) الافتلاء: الافتطام، والمعنى تهيئة الغلام عمّا هو عليه إلى الرئاسة.

(٤) أغلين: جعلت غالية أو وجدت غالية، ونسام نحمل على أن نسوم بها ومقصود البيت الإبانة عن محل النفس من الشجاعة، والبيت قائم على المقابلة بين حالين متباينين.

(٥) المفارق: الوجوه، والمقصود بها نقاء العرض وانتفاء الذم، وقد يكون المراد ابيضاض المفارق من شدة أهوال الشدائد التي يقاسونهـا، والمراجل: قدور الضيافة، والأسو: مداواة الجرح.

إنــي لَمِــن مَعْـشَــرٍ أَفْـنَـى أوائِـلَهـمُ	قَوْلُ الكُمَـاةِ ألا أَيْنَ المحـامُــونـا[1]
لو كانَ في الألفِ مِنّـا واحِــدٌ فَدَعَـوْا	مَنْ فارِسٌ خالَـهُـمْ إيَّاه يَعْـنــونـا
إذا الـكُـمـاةُ تَنَحَّـوا أَنْ يَنـالَـهُمُ	حَدُّ الـظُّبـاتِ وَصَلْنـاهـا بأَيْدِينَا[2]
ولا تَراهــم وإنْ جَلَّتْ مُصِـيْبَـتُـهُـمْ	مَعَ الـبـكـاةِ على مَنْ مات يَبْكُـونـا
وَنَــركَـبُ الـكُـرْهَ أحيانـاً فَيَفْـرُجُـهُ	عَنَّـا الـحِـفـاظُ وأسيافٌ تواتـيـنـا[3]

وإذا كانت العرب في جاهليتها تقول الأبيات اليسيرة من الرجز في الحرب والحداء والمفاخرة فمن الجدير بالتقديم في زمن الإسلام أبو النجم العجلي الذي حملت همزيته فخراً بمآثر قومه في رعاية الخيل، والعناية بالعتاد والعدّة من سيوف ودروع ورماح، قصداً إلى المنعة والإغاثة والنجدة، كل ذلك بصدق خلقي في محاكاة الواقع[4]، وفن متدفق الصور الفنية، متآلف مع إيقاع موسيقى قوي النبرات، في جزالة لفظه، وحسن تركيبه، وانسجامه مع إيحاء المعاني، يقول[5]:

والـخيل تَسْبَـحُ بالـكـمـاةِ كأنَّـهـا	طيْرٌ تَمَـطَّر من ظلالِ عَمَـاءِ
يخـرجــن من رَهَـجٍ دَوْنَ ظلالـه	مثــل الجنـادب من حَصَى المعــزاءِ
يَلْفُـظن من وَجَـعِ الشَّكيم وعَجْمِـهِ	زَبَـداً خَلَطْنَ بياضَـهُ بدمـاءِ[6]
كم من كريمـةِ مَعْـشَـرٍ أَيَّمْـنَـهـا	وتَـركــن صاحِـبَـهـا بدار ثَواءِ[7]

---

(١) الكمأة: جمع كمي وهو الشجاع الساتر لنفسه بالسلاح.
(٢) الظبات: جمع ظُبة: حدّ السيف.
(٣) في معاني القصيدة والصفات التي فخر بها الشاعر انظر شرح المرزوقي لديوان الحماسة ١/ ١٠٠-١١٠).
(٤) سابق أبو النجم الشعراء بهذه القصيدة في بلاط سليمان بن عبد الملك ففاز عليهم محققاً ما اشترط في ذلك من ذكر مآثر القوم دون كذب. (انظر ابن سلام ٢/ ٧٥١).
(٥) عيار الشعر ص ٦١-٦٢. والقصيدة من البحر الكامل، وتفاعيله وإيقاعه قريب من الرجز.
(٦) الشكيمة: حديدة في لجام الفرس تعترض فمه.
(٧) أيمنها: تركنها بلا زوج؛ لأن الحرب مأيمة للنساء. والثواء: طول الإقامة والمقصود الموت.

إن الأعادي لن تنال قديمنا ... حتى تنالَ كواكبَ الجوزاءِ
كم في لُجَيْمٍ من أغرَّ كأنّه ... صُبْحٌ يَشُقُّ طيالسَ الظّلماءِ
بَحْرٌ يكلِّلُ بالسَّديف جِفانَهُ ... حتى يموت شمال كل شتاءِ[1]
ومُجَرِّبٍ خَضَلِ السِّنانَ إذا التقى ... رَجَعت بخاطِره الصدور ظماءِ
صَدِئُ القباءِ من الحَديدِ كأنّهُ ... جملٌ تَغَمَّدَهُ عَصيمُ هَنَاءِ
إنّا وجَدِّكَ ما يكون سلاحُنا ... حَجرُ الأكامِ ولا عصا الطرفاءِ
نأوي إلى حَلَقِ الحديدِ وقُرَّحٍ ... قُبٌّ تَشَوَّق نحو كُلِّ دعاءِ
ولقد غدونَ على طهيَّةً غدوةً ... حتى طَرَقن نساءَنا بنساءِ
تِلْكُمْ مَراكبنا وفوقَ حبائنا ... بيض الغضونِ سوابغُ الأثناءِ
قدِّرن من حَلَقٍ كأنَّ شُعاعَها ... ثَلْجٌ يَطِنُّ على متونِ نهاءِ
تحمي الرِّماح لنا حمانا كُلَّه ... وتبيحُ بَعْدُ مسارحَ الأحماءِ
إن السيوفَ تجيرنا ونجيرُها ... كُلٌّ يجيرُ بعِزَّةٍ ووفاءِ
لا ينثنينَ ولا نردُّ حدودها ... عن حَدِّ كلِّ كتيبةٍ خرساءِ
إنّا لَنُعْمِلُ بالصفوف سيوفنا ... عَمَلَ الحريق بيابسِ الحَلْفاءِ

وتجدر الإشارة إلى أن ابن طباطبا جَرّد قصائد الفخر القبلي - إذا استثنينا قصيدة نهشل بن حران - من خصوصيتها القبلية، فأطلق الفخر فيها من قيود المرجع الذي يعود إليه القول؛ بإسقاط الأبيات المتعلقة بذلك، فغدت المعاني والقيم أنيس كل مفتخر، وغناءً حماسياً لكل طالب عزّة.

ولا يقل الفخر بالذات والنفس في قيمه الأخلاقية عن الفخر الجماعي بالقوم، خاصة إذا كان حديثاً عن الطبائع الكريمة والسجايا الحميدة من حياء وعفاف وما أشبه من إكرام النفس، وصونها عمّا يدنسها، أو يلحق الأذى بها، وكان إخراج ذلك مخرج الوعظ بالموقف الهادي إلى ترسيخ الحكم والحكمة دون المباشرة في التوجه والتعبير،

(١) السديف: شحم السنام، والشمال: ريح شديدة البرودة تهب شتاء.

يقول المغيرة بن حبناء[1]:

فإن يك عاراً ما لقيت فربما ... أتى المرء يوم السّوء من حيث لا يدري
ولم أر ذا عيش يدوم ولا أرى ... زمان الغنى إلا قريباً من الفقر
ومن يفتقر يعلم مكان صديقه ... ومن يحيى لا يعدم بلاءً من الدّهر
وإني لأستحي إذا كنت معسراً ... صديقي والخلّان أن يعلموا عُسْري
وأهجرُ خلاني وما خانَ عهدهم ... حياءً وإكراماً وما بي من كبر
وأكرم نفسي أن ترى بي حاجةً ... إلى أحد دوني وإن كان ذا وفر
ولما رأيت المالَ قد حيل دونه ... وصدت وجوه دون أرحامها البتر
جعلت حليف النفس عضباً ونثرةً ... وأزرق مشحوذاً كخافية النسر
ولا خير في عيش امرىءٍ لا ترى له ... وظيفة حق في ثناء وفي أجر

٢ـ وأما مطلبه الثاني وهو قيام هذه المرويات على الصدق، فعلى الرغم من تحققه في المطلب الأول في المدح والفخر خلقياً بنقل الحقيقة الأخلاقية كما هي في الواقع الخارجي[2]، فإن في الرثاء والوعظ والشكوى صدقاً فنياً في التعبير عن العواطف والأحاسيس تعبيراً أميناً دون تزييف أو تزوير، وصدقاً آخر في المعاني المستمدة من التجارب بالدقة والإصابة.

ولم يكن موقف ابن طباطبا متوازناً فيما انتخب من المراثي، سواء أكان في عددها أو طولها، غير أنه كان منسجماً مع معياره في صدق الفن وصدق التجربة، فقد تخير لأبي ذؤيب أبياتاً ثلاثة أصاب فيها ضعف حيلة الإنسان واستسلامه أمام قوة الموت أو العدم، وهي قوله[3]:

---

(١) عيار الشعر: ص ٥٧ـ٥٨ وانظر قصيدة أبي قيس بن الأسلت ص٥١ وقصيدة عنترة ص٥٣.

(٢) من ذلك أيضاً المنصفة التي اختارها لعبد الشارق بن عبد العزي الجهني (انظر عيار الشعر ص٦٢).

(٣) المصدر نفسه ص٥٠.

أَمِنَ المَنُونِ ورَيْبِها تَتَوَجَّعُ والدَّهْرُ ليس بِمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ
وإذا المَنِيةُ أَنْشَبَتْ أَظْفارَها أَلْفيتَ كُلَّ تَميمةٍ لا تَنْفَعُ
والنَّفسُ راغِبَةٌ إذا رَغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

وقد جرد ابن طباطبا هذه المرثية من الصور الثلاث التي أتقن أبو ذؤيب تصويرها، وهي حمار الوحش، والثور مع الصائد والكلاب، والفارس البطل، التي تمثل مظاهر القوة في صراع الحياة وانهيارها أمام الموت. وفات ابن طباطبا بإخلاصه لمقياسه في الصدق وحدّة تطبيقه إدراك العزاء والتسلية والصبر في هذه الأنماط من الصراع مع الحيوان وهو اتجاه جرت عادة الشعراء فيه إذا كان الشعر مرثية أو موعظة[1].

واختار من قصائد الخنساء البكائية في صخر أبياتاً ذات إيقاع متميز التقطيع بوحدات متكافئة متساوية، ونبرات متعادلة الامتداد الصوتي، بتكرر رتيب البناء بصيغة فعّال:

لو أن للدهر مالاً كان مُتْلدَه لكان للدهر صخرٌ مال قُنْيانِ
آبى النصيحة، حمال العظيمة متلا ف الكريمة، لا سقط ولا وانِ
حامي الحقيقة، نسال الوديـ ـعة معتاق الوثيقة، جلد غير ثنيانِ
رئّاءُ مرقبة، منّاع مغلقة ورّاد مشربةٍ، قطّاع أقرانِ
شهاد أنجيةٍ، حمّال ألوية هبّاط أودية، سرحان قيعانِ
التارك القرن مخضوباً أنامله كأن في ريطتيه نضخ أرقانِ

ولا تثريب على ابن طباطبا في الميل إلى هاتين المرثيتين، فلقصيدة أبي ذؤيب في رثاء أبنائه الخمسة، أو شعر الخنساء في بكاء صخر، شأن رفيع في الوسط النقدي قديماً وحديثاً، لكن التثريب عليه في اختياره مرثيات ثلاث للفرزدق، واحدة غيرية يرثي فيها بشر بن مروان، وثنتان ذاتيّتان يرثي فيهما بنيه[2].

---

(١) الجاحظ: الحيوان ٢ / ٢٠. (٢) انظر عيار الشعر ص ٥٨-٦٠.

حقاً أن الفرزدق مزج مدحاً بتفجع في رثائه بشر بن مروان، وكان في مدحه له مقتصداً حين وصفه «بأبيض ميمون النقيبة والأمر» وبالأغر الذي يشبه البدر:

وإن أبـا مروان بشـراً أخـاكـم ثوى غير متـبـوع بذم ولا غدر

وأظهر الفرزدق حزناً وتفجعاً عليه بقوله: إن الدهر لا يقاتل والمنية لا تدفع:

ومـا أحـد ذا فاقـة كان مثلنـا إلـيه ولـكـن لا تقيه للدهـر

غير أن هذا التفجع هوّن من فاعليته مجاراة الفرزدق للشعراء في المعاني التقليدية في مشاركة الكون له في بكائه وحزنه:

فإلا تكـن هنـد بكتـه فقـد بكـت عليه الثـريا في كواكبهـا الـزّهـر
ألـم تر أن الأرض هدت جبـالـهـا وأن نجـوم الـليل بعـدك لا تسـري

وقد كرر هذا المعنى في رثائه لبنيه في قوله:

ولـو كانـوا بنـي جبـل فمـاتـوا لأمسى وهـو مختشـع الصخـور

وقوله:

على حدث لو أن سلمى أصـابـهـا بمثـل بنيَّ انفض عنهـا هضـابهـا

ولم يبرح الفرزدق في هذا الرثاء الفخر بالنفس والتعريض بالغير قصداً إلى إظهار التماسك، على الرغم من يقينه بكتاب الموت الذي لا يؤجل:

بنـو الأرض قد كانـوا بنيَّ فعـزنـي عليهـم بآجـال الـمنـايا كتـابهـا
وداع علي الله لو متُّ قد رأى بدعـوتـه ما يتـقـي لو يجـابـهـا
ومـن متـمـن أن أمـوت وقـد بنـت حياتـي له شمـاً عظامـاً قبـابـهـا
بقيت وأبـقـت من قنـاتـي مصيبتي عشـو زنـة زوراء صُمـاً كعـابـهـا
ومـا زلت أرمي الحـرب حتى تركتهـا كسـير الـجنـاح ما تدق عظامـهـا

ويظل إلحاح الفرزدق على الصورة البيانية المجسدة لانفعاله الحزين وهمه

الطويل، ظاهرة واضحة الدلالة على احتفال بحسن الرصف وإتقان المعاني، وهو مثار إعجاب ابن طباطبا، يقول الفرزدق مشاركاً لزوجته في الحزن:

إذا حنت نوار تهيج مني ... حرارة مثل ملتهب السعير
حنين الوالهين إذا ذكرنا ... فؤادينا اللذين مع القبور
كأن تشرب العبرات منها ... هراقة شنتين على بعير
كأن الليل يحبسه علينا ... ضرار أو يكرُّ إلى نذور
كأن نجومه شول تثني ... لأدهم في مباركها عقير

وقال واصفاً حاله بصورة أخرى من التعبير:

إذا ذكرت أسماؤهم أو دعوتهم ... تكاد حيازيمي تَفرّى صلابها
وإني وإشرافي عليهم وما أرى ... كنفسي إذ هم في فؤادي لبابها
كراكز أرماح تُجُزِّعن بعدما ... أقيمت عواليها وشدت حرابها

وانتخاب ابن طباطبا لهذه المراثي الذاتية والغيرية ينبيء عن فهم للرثاء بأنه وعظ واتعاظ، وصبر وعزاء، أكثر من كونه مدحاً للميت وثناء عليه وتأبيناً له، وهذا الفهم جعل المراثي عند ابن طباطبا تجري في سياق المواعظ والحكم، في عموم الغاية، وخصوص التجربة والصدق.

غير أن الملاحظ أن ابن طباطبا قصر المراثي على الإسلاميين أو من شهد الإسلام من المخضرمين، في حين حصر انتخابه من المواعظ والحكم في الشعراء الجاهليين، وكان من الممكن أن ينبيء هذا القصر والحصر عن فهم متميز لطبيعة المراثي الإسلامية، لو كانت المختارات الأربعة السابقة على درجة من التوجه الإسلامي في الرثاء، وأنه وعظ بالموت والآخرة، أو تصوير لقضايا الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة.

وتقوم المواعظ والحكم الجاهلية على فقه لمجريات الحياة وتصوير لحال

الإنسان تصويراً مادياً عقلياً، فالتجربة فيها تأملية، وتوجيه الإنسان فيها بالموقف والصورة أو بالمباشرة أمراً ونهياً. فمن التوجيه بالموقف والصورة قول الأسود بن يعفر النهشلي:

ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
... جرت الرياح على محل ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوماً يصير إلى بلى ونفاذ
.... الأبيات[1].

والأبيات المختارة من قصيدة «رائعة طويلة لاحقة بأجود الشعر»[2] وهي من مختار أشعار العرب وحكمها المفضلة المأثورة[3].

وفي قصيدة عدي بن زيد دعوة مباشرة للتحلي بأخلاق الرجل القدوة، في اجتناب الشبهات، والتزام الفضائل، وحفظ المعروف، وحسن اختيار الصديق، وقوة المطالبة بالحق، والعفاف والحلم والعدل والصدق ومجانبة الظلم:

كفى واعظاً للمرء أيام دهره ... تروح له بالواعظات وتغتدي
... فنفسك فاحفظها من الغي والردى ... متى تغوها يغو الذي بك يقتدي
وإن كانت النعماء عندك لامرىء ... فمثلاً بها فاجز المطالب أو زد
إذا أنت لم تنفع بودك أهله ... ولم تُنْك بالبؤس عدوك فابعد[4]
إذا أنتَ فاكَهْتَ الرِّجالَ فلا تَلَعْ ... وقل مثلما قالوا ولا تتزيد[5]
عن المرءِ لا تَسْأَلْ وابصر قَرِيْنَهُ ... فإن القرينَ بالمُقارِنِ مقتدِ

(١) ابن طباطبا: عيار الشعر ص ٥٤.
(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/١٤٧.
(٣) أحمد محمد شاكر: حاشية المفضليات ٢/١٥.
وانظر تحليلاً للقصيدة في الفصل الأول من هذا الباب ص٣٦٠-٣٦٩.
(٤) تنك: تقهر أو تصاب.
(٥) تلع: تجزع وتضجر، ورواية الديوان تتزند، وتزند: ضاق بالجواب والتزند: سرعة الغضب.

إذا أنتَ طالبتَ الرِّجالَ نوالَهُمْ ... فَعِفَّ ولا تطلب بجهدٍ فَتُنْكَدِ
سَتُدْرِكُ من ذي الفُحْشِ حَقَّك كُلَّهُ ... بحلمكَ في رِفقٍ ولما تَشَدَّدِ
فلا تُقْصِرَنْ عن سَعْي ما قد ورثتَهُ ... وما اسْطَعْتَ من خيرٍ لِنَفْسِكَ فازْدَدِ
وبالصِّدقِ فانطِقْ إن نَطَقْتَ ولا تَلُمْ ... وذا الذَّمِ فاذمُمْهُ وذا الحمدِ فاحمَدِ
عسى سائلٌ ذو حاجةٍ إن مَنَعْتَهُ ... من اليومِ سُؤْلاً أن يُيَسَّرَ في غدِ
وظُلمُ ذوي القُربى أشدُّ مَضَاضةً ... على المرءِ من وَقْعِ الحُسَامِ المُهَنَّدِ[1]
إذا ما رأيتَ الشَرَّ يَبْعَثُ أهلَهُ ... وقام جُناةُ الشرِّ للشَّرِّ فاقعُدِ

وهذه القصيدة «إحدى أربع قصائد غرر روائع مبرّزات»[2] لعدي بن زيد، تستقيم في أحكامها مع العقل وحكمه، وتنتظم في شمولها الإنسان أياً كان زمانه باطراد لا ينخرم، وهي لذلك تسمو على حكم زهير التي بدأ بها ابن طباطبا مختاراته:

سئمت تكاليفَ الحياةِ ومَنْ يَعِش ... ثمانين حولاً لا أبا لك يَسْأَمِ
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب ... تمته ومن تخطىء يعمر فيهرَمِ
ومن لا يصانع في أمورٍ كثيرةٍ ... يُضَرَّس بأنيابٍ ويوطأ بِمَنْسَمِ
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ... ولكنني عن علم ما في غد عَمِ
ومن يجعل المعروف من دون عرضه ... يَفِرْهُ ومَنْ لا يتق الشَّتْمَ يُشْتَمِ
ومن يك ذا فضلٍ فيبخل بفضله ... على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويذمِمِ
ومن يوفِ لا يُذْمَمْ ومن يُفْضِ قلبه ... إلى مطمئن البر لا يتجمجمِ
ومن يَعْصِ أطراف الزِّجاج فإنه ... يطيع العوالي رُكِّبَتْ كل لهذمِ
ومَنْ لا يَذُدْ عن حَوْضِهِ بسلاحه ... يُهَدَّم ومن لا يظلم الناسَ يُظْلَمِ
ومن يغترب يحسب عدوّاً صديقه ... ومن لا يُكَرِّم نَفْسَهُ لا يُكَرَّمِ

---

(١) المضاضة: الحرقة.

(٢) ابن سلام: طبقات فحول الشعراء ١/١٤١.

وسواءً أكان طرح زهير لهذه الحكمة متصلاً بموضوع معلقته الحرب والسلم، أو كان تجربة تأميلة صرفة، فإن فيها بعض الصواب وبعض الخطأ، وهو أمر طبيعي عند من يعتمدون المعرفة المنطقية سبيلاً للتقرير والحكم، ولعل أمر هذا المنطق ملحوظ في الجملة الشرطية التي طغت أسلوباً على هذه الحكمة، وقد أدرك جانباً من ذلك ابن شرف القيرواني حين عرض لسقطات زهير في معلقته، فيقول تعليقاً على قول زهير:

رأيت المنـايا خبط عشـواء من تصب تمتـه ومـن يخـطىء يعمـر فيهـرم

«وقد غلط في وصفها بخبط العشواء. . . وإنما أدخل الوهم على زهير موت قوم عبـطة ومـوت قوم هرمـاً، وظنـوا طول العمر إنما سببه إخطاء المنية، وسبب قصره إصابتها، وهيهات الصواب من ظنه!»[1].

وفي قول زهير:

ومـن لا يذد عن حوضـه بسـلاحـه يُهَـدَّم ومـن لا يظلم النـاسَ يُظْلَمِ

قال: «وقد تجاوز هذا الحق الباطل، وبنى قولاً ينقضه جريان العادة، وشهادة المشـاهـدة، وذلك أن الظلم وعرة مراكبه، مذمومة عواقبه، في جاهليته وإسلامنا، فحرّض في شعره عليه، وإن كان إنما أشار في شعره إلى أن الظالم يرهب فلا يظلم، فهـذا قياس ليس يطرد، لكن يرهبـه من هو أضعف منـه، وربما انتقم منه بالحيلة والمكيدة، وقد يظلم الظالم من يغلبه فيكون سبب هلاكه مع قباحة السمة بالظلم. والمثل إنما يُضرب بما لا ينخرم، وقد كانت له مندوحة واتساع في أن يقول «يهدم ومن لا يظلم الناسُ يُظْلَمِ» فهذا أصح وأسلم من مَن لا يَظلم ويُظلم»[2].

ومما يؤخذ عليه في هذه المواعظ والحكم قوله في رواية من روى:

(١) ابن شرف القيرواني: رسائل الانتقاد ص٤٨.

(٢) المصدر نفسه ص ٤٨-٤٩.

ومن يجعــل المعــروف في غير أهله يكــن حمــده ذمــاً عليه ويذمــم

إذ تعكس تصوره المادي للحياة والعلاقات الإنسانية؛ بأن يُزْرَع الخير والمعروف في أرضه الجديرة به ولا يتجاوزها إلى غيرها مما لا تقدير لأهلها للفضل والمعروف.

ومن الباحثين من حاول ربط هذه الحكم ببناء القصيدة وموضوعها، فجعل البيت الأول والثاني منها نفساً ذاتياً تأملياً مهد به لما سيقوله، بأن ما يقوله نتاج تجربة وعراك مع السنين، أمـا البيت «ومن لا يصانع . . . » وقوله: «ومن يجعل المعروف . . . » وقوله: «ومن يك ذا فضل . . . » فمرتبط بعمل السيدين العظيمين فيما تحملاه اتقاء لمذمة الدهر وللعِرض، وأما الأبيات الثلاثة: «ومن يوف لا يذمم . . . » وقوله: «ومن يعص أطـراف الـزجـاج . . . » وقـولـه: «ومن لا يَذُدْ . . . » فما أقربها إلى استذكار المــواجهـة الحـربية التي كادت تبعث من جديد لمـا ارتكبـه حصين بن ضمضم المري . . . وهكذا تمضي صلات هذه الحكم[1].

وأياً كان الرأي في حكم زهير فإن الإنسجام مع المعيار الخلقي فيها يظل محدوداً بموقف ليس فيه شمول ولا إطراد الحكم الصائب، إلا في حدود البيئة التي جاءت الحكم صدى لواقع الحياة والناس فيها، وهي لا تخلو من صدق وتفكير منطقي.

غير أن حكم عدي بن زيد توجيه للإنســان نحو الأمثل والأقوم على الرغم من توحده مع زهير في المنطلق الإنساني والبيئي، وشتان بين من يقوّم طريق الإنسان نحو الرفعة والكمال في القول والعمل بالسعي والجد من غير نظر لفائدة عرضية، أو انتظار لنتـاج ذلـك، وبين من لا يرى العلاقات الإنسانية إلا أخذاً وعطاءً، وظلماً واتقاء، ومداراة واكتساباً.

وتظل حكم عدي بن زيد ذات نفوذ عميق في النفس الإنسانية بما هيأ لها من

---

(١) د. محمود عبد الله الجادر: قراءة نقدية في مطولة زهير بن أبي سلمى ص١٢ (بحث مقدم لمؤتمر النقد الأدبي الثالث ـ جامعة اليرموك ١٩٨٩).

دفقات عاطفية حملها الأمر والنهي فأكسب النصح والإرشاد انفعالاً وحرارة، وضمن عدي لمواعظه قدراً من الإيقاع الداخلي في اللغة بالتكرار الصوتي أو التماثل الموسيقي الذي عمَّر أجزاء القصيدة كقوله: «تعترى رجالاً عرت من مثل بؤس وأنعم» وقوله: «متى تغوها يغو» «فأجز بها المطالب أو زد» وقوله: «فإن القرين بالمقارن يقتد» وقوله:

وبالصدق فانطق إن نطقت ولا تلم ... وذا الذم فاذممه وذا الحمد فاحمد
إذا ما رأيت البشر يبعث أهله ... وقام جناة البشر للبشر فاقعدِ

إذ خففت هذه الموسيقى الموقعة من حدة الأداء التقريري للمقولات الفكرية والعقلية، ومكنت للوعظ من مهمته في الاستمالة والتوجيه.

وعلى ذلك فإن هاتين القصيدتين تمثلان مستوى واحداً من صدق التجربة، واختلافاً متبايناً من صدق المعنى وطريقة أدائه، ولعل ابن طباطبا لذلك قصد في هذا الانتخاب.

وكما نزع ابن طباطبا في هذا الانتخاب عن معايير الإحسان قيماً فكرية وفناً تعبيرياً، فقد صدر عن أذواق المعدودين من النقاد في ذلك أيضاً، حيث أخذ برأي أبي عمرو بن العلاء في قصيدة المثقب العبدي، وبذوق ابن سلام في بعض قصائد عدي بن زيد، وباختيار أبي تمام في منصفة عبد الشارق بن عبد العزى الجهني وقصيدة عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، واعتمد على المفضليات في كثير من القصائد دون الأصمعيات، ومال ابن طباطبا إلى استجادة ابن قتيبة ورأي ابن المعتز في قصيدة مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة الشيباني[1]، ولا يعني ذلك

(١) نقل ابن خلكان عن ابن المعتز قال: «وأجود ما قاله مروان قصيدته الغراء اللاميّة وهي التي فضل بها شعراء زمانه، يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني، قال ابن خلكان والقصيدة طويلة تناهز الستين بيتاً» وأول المختار منها قوله:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم ... أُسود لها في غيل خفَّان أشبل

وفيات الأعيان ٥/١٩٠

امّحاء شخصية ابن طباطبا في هذا المجال، إذ أن له رأياً مميزاً في اختيار قصائد إسلامية، فضلاً عن مؤالفة القصائد الجاهلية لمقياسه الخلقي بتوازن وانضباط.

* * *

ومن مرويات الإحسان عند أهل البلاغة والنقد ما رواه أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل ت ٣٩٥هـ) من شعر أبي محجن بن حبيب بن عمرو بن عمير من بني عنزة بن عوف بن ثقيف، فقد خصّ قصيدته القافية بالعناية فقال ممهداً لها: «قد فُضّلت أبياته القافية على كل شعر قيل في معناها وهي هذه»[١]:

لا تَسْأَلي النَّاسَ عن مالي وكثرتِهِ ... وسائلي القوم عن ديني وعن خُلُقي
قَدْ يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّا من سَراتِهم ... إذا سَمَا بَصَرُ الرِّعْدِيْدَةِ الفَرِقُ[٢]
أُعطي السِّنانَ غداةَ الرَّوْعِ نِحْلَتَهُ ... وعامِلَ الرُّمحِ أَرْويه مِنَ العَلَقِ[٣]
وأَطْعَنُ الطَّعْنَةَ النجلاءَ عن عُرُضٍ ... تَنْفي المَسابيرَ بالإزْبادِ والفَهَقِ[٤]
عَفُّ الإياسة عما لَسْتُ نائلَهُ ... وإنْ ظُلِمتُ شَديدُ الحِقْدِ والحَنَقِ[٥]
وأَكشف المأزِقُ المكروبَ غُمَّتَهُ ... وأَكتُمُ السرَّ فيه ضَرْبَةُ العُنُقِ[٦]

---

(١) أبو محجن الثقفي: ديوانه ص ١٥ صنعة أبي هلال العسكري تحقيق د. صلاح الدين المنجد.

(٢) سراة القوم: خيارهم، وسما بصره: شخص من الفزع وبقي مبهوتاً، والرعديدة: الجبان والهاء فيها للمبالغة، والفرق: الفزع.

(٣) النحلة: العطية، وقد جعل أبو محجن ما نال السنان من الدم نحلة، وعامل الرمح: قصبته، وهو على قدر ذراع من السنان، والعلق: الدم.

(٤) الطعنة النجلاء: الواسعة، العُرُض: الناحية والطعن عن عرض: المقصود به اختلاسها وهو محمود ممدوح عندهم، والمسابير: جمع مسبار: وهو الميل الذي تقدر به الجراحات، والفهق: كثرة الدم، ونفي المسابير بالإزباد والفهق: أي أن الطعنة لعمقها وما يزبد منها من الدم ترو من قبحها من يحاول سبرها.

(٥) الإياسة: اليأس، والحنق: الغيظ.

(٦) المأزق: المضيق في الحرب، والمكروب: الكارب، وغمته: ضيقه وشدته.

قد يُقْتِـرُ المـرءُ يَوْمـاً وهـو ذو حَسَبٍ وقـد يَثـوبُ سَوامُ العـاجِـزِ الحَمِقِ[1]
قد يَكْثُـرُ الـمـالُ يومـاً بَعْـدَ قِلَّتِـهِ ويكْتَسِي العـودُ بَعْـدَ الجَـدْبِ بالـوَرَقِ
وقـد أَجـودُ ومـا مالـي بذي فَنَـعٍ وقـد أكُـرُّ وراءَ الـمُجْحَـرِ البَـرِقِ[2]
وأَهْـجُـرُ الـفِعْـلَ ذا حُوبٍ ومَنْقَصَـةٍ وأَتْـرُكُ الـقـولَ يدنيني من الـرَّهَقِ[3]

والأبيات تنبض بالقيم الخلقية الإسلامية، ومفتاحها في المقولة التي رواها أبو هلال العسكري عن الشعبي، قال: «فلم يكن في الحي فتى لا يحفظ هذه الأبيات فتعد مروءة له»[4].

والمروءة في حديث الرسول ﷺ مخصوصة بالعقل، فعن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «كـرم الـرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه» وفسّر ابن حبان هذا الحديث بقوله: «صرح النبي ﷺ في هذا الخبر بأن المروءة هي العقل، والعقل اسم يقع على العلم بسلوك الصواب واجتناب الخطأ، فالواجب على العاقل أن يلزم إقامة المروءة بما قدر عليه من الخصال المحمودة، وترك الخلال المذمومة»[5].

فقد عدّ أبو محجن معيار تقويم الإنسان دينه وخلقه وليس ماله وثروته، ثم فخر بشجاعته ومواقفه القتالية في الدفاع عن الحريم والصبر على مراس العدو، ومدافعتهم عنـد اللقاء وتفريج الكربات والمضائق عند الحرب، وهو يكره الظلم ويحقد على الظالمين، وأتبع ذلك بذكر مادح لبعض أخلاقه بأنه رجل عفيف عاقل يرضى بما قسم الله له فلا يطمع فيما لا يناله، ويبأس منه يأساً عفاً لا قنوط معه ولا كفر، ويحافظ على من يستـودعـه سرّه، ويكتمه كتماناً لا بوح فيه، بل إنه يضحى بنفسه دون إذاعته.

---

(١) الاقتار: الإقلال، الحسب: مناقب الإنسان وآبائه، ويثوب: يكثر، والسوام: المال الراعي.
(٢) ذو فنع: ذو كثرة، والمحجر: المضيَّق عليه في الحرب، والبَرِق: الشاخص البصر.
(٣) الحوب: الإثم، والرَّهق: العرامة والخبث.
(٤) أبو هلال العسكري: ديوان أبي محجن ص ٢٢.
(٥) أبو حاتم بن حبان: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ص ٢٢٩.

ويتجافى عن الإثم، ولا يلم بالخبائث والفساد، وهو بعد ذلك جواد كريم على الرغم من إقلاله في المال.

وهذه الخصال جماع العقل والمروءة التي اختلف الناس في كيفيتها، من ذلك قولهم إنها التباعد من الخلق الدنيِّ، أو أن يعتزل الرجل الريبة، فإنه إذا كان مريباً كان ذليلاً، وأن يصلح ماله، أو أنها سخاوة النفس وحسن الخلق، أو العفة والحرفة، أي يعف عمّا حرم الله، ويحترف فيما أحل الله[1] وقال معاوية: المروءة: احتمال الجريرة، وإصلاح أمر العشيرة[2].

وتجمع القصيدة إلى هذه القيم الخلقية الإسلامية الرفيعة أداءً جمالياً في الأسلوب، ففيها دقة في التعبير، واقتصاد في التصوير، إذ عبر بالمضارع الثابت المستمر عن المعاني المتمكنة في سلوكه وفي دائرة إرادته، مثل أعطي السنان، أطعن الطعنة النجلاء، أكشف المأزق أهجر الفعل ذا حوب ومنقصة، وساق بأسلوب الشك والتردد الأفعال الخارجة عن تمكنه، المسندة إلى الغير لتردد التصديق، أو الواقعة في علم الغيب لاحتمال الوقوع كقوله: قد يعلم الناس أنا من سراتهم... (البيت)، قد يقتر المرء، قد يثوب سوام العاجر، قد يكثر المال.

والتشبيه البسيط التركيب هو الوحدة المعبرة عن إحساس أبي محجن في فخره وثنائه على نفسه، وهذه البساطة في التصوير قربت المجاز من الحقيقة في الاستعارة والتشبيه كما في قوله:

أعطي السنان غداة الروع نحلته وعامل الرمح أرويه من العلق

وقوله: تنفى المسابير بالأزباد والفهق، وقوله: وأكشف المأزق المكروب غمته وقوله:

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٣١.

(٢) الحصري: زهر الآداب ١/ ٩٠.

قد يكثر المال يوماً بعد قلته ويكتسي بعد الجدب بالورق

ولهذا الإحسان في المعنى والمبنى «كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفضل هذة الأبيات ويتهم رأيه فيها فلا يذكر ذلك، إلى أن قال لعلي بن طالب كرم الله وجهه: من أشعر الناس؟ قال: الذي أحسن الوصف، وأحكم الرصف، وقال الحق: قال: ومن هو؟ قال: أبو محجن في قوله: «لا تسألي الناس عن مالي وكثرته». قال: أيدتني يا أبا الحسن أيدك الله. فما زلت مؤيداً في كل خير. ثم قال له: قد صدق في كل ما ذكر، لولا آفة كانت في دينه من حبه الخمر، ولقد تركها آنفاً، والأنف من الكرم، والكرم من الإيمان، لقوله تعالى: ﴿إن أكرمكم عن الله أتقاكم﴾ فقال عمر رضي الله عنه: يأبى الله يا بني هاشم إلاّ أن يسودكم في الدين والدنيا»[1].

(١) أبو هلال العسكري: ديوان أبي محجن الثقفي ص ٢٢.